مِحْوَرِيَّةُ الْبُنْيَةِ الصَّرْفِيَّةِ وَأَثَرُهَا فِي تَوْجِيهِ الْمَعْنَى
خُطبةُ مَنْعِ الْمَاءِ فِي صِفِّينَ مِثالًا

م. م عِمَاد طالِب مُوسَى الحَيْدَانِي
المديرية العامة للتربية في محافظة كربلاء المقدسة
أ .د عادل نذير بيري الحسَّاني
جامعة كربلاء/ كلية التربية للعلوم الإنسانيَّة/ قسم اللغة العربية

ملخص البحث:

تقوم هذه الدراسة على بيان **محورية البنية الصرفية وأثرها في توجيه المعنى**، وقد اتخذت لاجرائها متنًا من نهج البلاغة، تلك الخطبة التي قالها الإمام عليّ (عليه السلام) عندما منع معاوية وجيشه الماء عن جيش الإمام(عليه السلام)، وهي من الخطب التي تحثُّ على القتال بيدَ أنَّ الطريف فيها لا تجد دعوى صريحة لذلك، وقد رصد البحث تمظهرات البنى الفعلية والاسمية مبيِّنًا دقة انتقائها ورصفها في سياق لغويٍّ محكم يعضد السابق منه اللاحق، تعالج الغرض على وفق نزعة حجاجية تكشف المشكلة وتضع الحلول لها، مع فسحة متاحة لاختيار المتلقي من دون إكراه أو قهر، وقد قدَّم البحث مادته على مبحثين، الأول: ناقش مفهوم البنية، والصيغة، وتعريف موجز بالخطبة، والثاني: تضمن اشتغال البحث في بيان محورية تلك البنى وأثرها في توجيه المعنى المقصود.

الكلمات المفتاحية: محورية، البنية الصرفية، المعنى، صفين.

Research Summary:

This study is based on a statement on the centrality of the evidence and its impact on directing the meaning to conduct it ,it took a text from Nahj Al_Balaghah ,that sermon that Imam Ali (peace be upon him) gave when Muawiyah and his army prevented water from the army of Imam Ali (peace be upon him), and it is one of the sermons that it urges fighting, but the funny thing about it is that it does not find an explicit claim for that ,and the research has monitored the manifestations of the actual and nominal structures, indicating the accuracy of their selection and alignment in a tight linguistic context that supports the previous one and the subsequent one. without coercion or coercion ,the research presented its material in two sections, the first one :It discussed the concept of the structure, the formula, and a brief definition of the sermon, and the Second :It included the work of the research in explaining the centrality of those structures and their impact in directing the intended meaning.

مقدمة

الحمد لله الذي أنعم علينا بالإسلام، ومَن علينا بالقرآن، وأتم صلاته وأزكى سلامه على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد بن عبد الله خاتم النبيين وإمام المرسلين، وعلى واسطة النور الممتدة بين النبوة والإمامة، الصديقة الزكية، السيدة فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، وعلى وصيه وخليفته من بعده، وعلى الأئمة الأطهار من ولده عليهم السلام أجمعين.

وبعد:

فاللغة أصوات تنتظم في قوالب صرفية تضبط تفاعلها على نحو من التجانس الذي عهدته العربية، وأقرَّه الاستعمال الفصيح، لتكون البنى الصرفية اللَّبِنَات الأساسية في بناء المتواليات اللفظية في سياقات الاستعمال اللغوي، ولكلِّ بِنْيَةٍ صرفية معنى تضطلع به لتعممه على المفردات التي تنتظم على قرارها، مضافًا إلى معنى المفردة المعجمي الذي ينتج من اجتماع أصواتها، وعلى هدي ذلك يعد المستوى الصرفي حلقةً وسطًا بين المستوى الصوتي والمستوى التركيبي، إذ يهيئ المفردات على وفق الوظائف المطلوبة من أفعال وما تتميز به من تجرد، أو زيادة، أو حذف... وأسماء وما تتشكل به من اشتقاقات، أو وظائف فاعلية، ومفعولية...إلى غير ذلك، وما على المنتج إلا أن يختار الأبنية الصرفية التي تحقق له الغرض من الكلام، ولذلك تتباين أساليب الأداء اللغوي بحسب كفاءة المتكلمين، ومن هنا عنَّ للبحث أن يدرس محورية البنية الصرفية في نهج البلاغة، وتحديدا في الخطبة التي قالها الإمام علي(عليه السلام) عندما سيطر معاوية وجيشه على الماء، ومنع جيش الإمام(عليه

السلام) منه، وقد اصطلح عليها البحث بـ (خطبة منع الماء) اختصارا، لنقف على دقة انتقاء البنى الصرفية(فعلية/ أسمية) وبيان أثرها في جلاء المعنى ودقته.

وجاء قوام البحث على مطلبينِ: درس الأول منهما ماهية البنية الصرفية، والصيغة، وطبيعة المتن موضع الدراسة، ثم ناقش دقة افتتاح الخطبة وتميُّزها الأسلوبي.

وبيَّنَ المطلب الثاني: محورية البنى الصرفية(فعلية/ اسمية) في الخطبة، بلحاظ التجرد والزيادة، وطبيعة المبنى الذي وردت عليه الأفعال والأسماء، مبيِّنًا تفاعل دلالة البنية، ومعنى المفردة وما يقدّمانه من زخم معنوي يكشف الغرض، ويُقارب القصد.

ثم خُتِم البحث بخاتمة سجَّلت أهم ما توصل إليه البحث من نتائج، ثم قائمة بمصادر البحث ومراجعه.

المطلب الأول: البنية الصرفية، وطبيعة المتن المدروس:

أولا- البنية الصرفية:

تشتملُ البنيةَ الصرفيةَ على ملمحينِ لغويَّينِ: أولهما، الصيغةُ الصرفةُ سواء أكانت صيغة فعلية أم صيغة أسمية، والآخر: المعنى المعجميُّ، وعند تفاعلِ هذينِ الملمحينِ تتكوَّنُ دلالةُ البنيةِ الصرفيةِ على نحوٍ من الاستقلالِ، وما إن تدخلَ البنيةُ الصرفيةُ في معتركِ المتواليات اللفظيةِ، فإنَّها تتخذُ لنفسِها اشتغالًا معنويًا قد يطابقُ معناها الأصليَّ الذي عُرِفَت به، أو لا تطابقُه؛ إذ تضطلع بوظيفةٍ جديدةٍ ينتحها لها ذلك التتابعُ اللفظيُّ الذي يعدُ علامةً لقصديةِ المنتجِ، ((تتمثل هذه الدلالة فيما تؤديه الزيادات الصرفية من معانٍ مضافاً إليها الجذر المعجمي))[١]، وذلك من لياقة العربية التي تمدُّ مستعملَها بمساحة في التعبير لبثِّ أفكاره أولا، ولبيان فصاحته وبلاغته ثانيا؛ إذ إنَّ توخي المعنى الأولي- في مواضع كثيرة- يجمِّد الابداع، ويهدر طاقة اللغة الخلاقة، ومن هنا ظهرت الانزياحات اللغوية، والتناوب في استعمال أبنيتها، إلى غير ذلك من عوارض التركيب، ومظاهره.

وقد رصد اللغويون تلك المظاهر الخلاقة في اللغة، و وصفوها وبيَّنوا مزيَّتها، وممن تكلم عن الدلالة الصرفية من القدماء ابن جني (٣٩٢هـ) إذ وسمها بالدلالة الصناعية، فقال: ((هذا باب في الدلالة اللفظية ، والصناعية ، والمعنوية ... وإنّما كانت الدلالة الصناعية أقوى من المعنوية من قِبَل أنّها وإنْ لم تكن لفظاً فإنّها صورة يحملها اللفظ ويخرج عليها ويستقر على المثال المعتزم بها ، فلمّا كانت كذلك لحقت بحكمه وجرت مجرى اللفظ المنطوق به فدخلا بذلك في باب المعلوم بالمشاهدة))[٢].

وعرّفَها من المحدثين الدكتور إبراهيم أنيس أنها : ((نوع من الدلالة يُستمد من طريق الصيغ وبنيتها))[٣] ، ولم يزد من جاء بعده على حدِّها إلاّ الشيء اليسير ، بزيادة الأمثلة أو تغييرها من مثل قولهم: إنَّ ((الدلالة الصرفية : هي التي تُستَفَادُ من بنية الكلمة وصيغتها كدلالة وزن (فِعَالة) على المهنة ، نحو: زِراعة صِناعة ، تِجارة، حِدادة ، نِجارة ، دِباغة ، وكدلالة (فَعّال) على المبالغة،نحو: كَذَّاب، فَعَّال، قَوَّال))[٤] ، وسمَّاها الدكتور فاضل الساقي ((الوظائف الصرفية: وهي المعاني الصرفية المستفاد من الصيغ المجردة لمباني التقسيم))[٥].

ثانيا: الصيغة الصرفية:

الصيغة تعني الهيئة التي تكون عليها المفردة، وما ينتابها من سوابق ولواحق، وفي اللسان((يُقَالُ: صِيغةُ الأَمرِ كَذَا وَكَذَا أَي هَيْئَتُهُ الَّتِي بُنِيَ عَلَيْهَا.))[٦]، و((الصَّوْغُ: مَصْدَرُ صاغَ الشيءَ يَصُوغُه صَوْغاً وصِياغةً وصُغْتُه أَصوغُه صِياغةً وصِيغةً وصَيْغُوغةً؛ الأَخيرة عَنِ اللِّحْيَانِيِّ: سَبكَهُ))[٧].

وصيغة الكلمة هي التي يمكن أن يشاركها فيها غيرها وهي عدد حروفها المرتبة وحركاتها المعينة وسكونها، مع اعتبار الحروف الزائدة والأصلية كلٍّ في موضعه[٨]، ونجد الكفوي (ت:١٠٩٤هـ) يحدها بقوله: ((الصيغة هي الهيئة العارضة للفظ باعتبار الحركات والسكنات وتقديم بعض الحروف على بعض، وهي صورة الكلمة، والحروف مادتها))[٩]، والصيغة عند المحدثين هي: ((كلُّ لفظ له معنى لغوي يفهم من مادة تركيبه، ومعنى صيغي هو ما يُفهم من هيئته، أي حركاته وسكناته وترتيب حروفه؛ لأنَّ الصيغة اسم من المصوغ الذي يدل على التصرف في الهيئة لا في المادة؛ فالمفهوم من حروف(ضرب) استعمال آلة التأديب في محل قابل له، ومن هيئته وقوع الفعل في الزمن الماضي، وتوحيد المسند إليه وتذكيره وغير ذلك))[١٠]، إذ يشترط في الصيغة اشتمالها على المعنيينِ: الصيغي (الاشتقاقي) واللغوي(المعجمي)، وهذا شرط يخرج الحروف، والأدوات، والضمائر، والظروف، والخوالف، من مفهوم الصيغة؛ فلا توجد لها أصول اشتقاقية يمكن تعميمها، وهو مذهب عامَّة الباحثين المحدثين[١١].

ثالثا- طبيعة المتن موضع الدراسة:

اختار البحث متنا لإجرائه قوامه خطبة من خطب صفين، قالها (عليه السلام) عندما استولى معاوية وجيشه على الشريعة- وهي منطقة على ضفاف نهر الفرات-، ومنعوا جيشَ الإمام عليٍّ(عليه السلام) من الماء، فـ((لمَّا غلب أصحاب معاوية أصحابه عليٍّ [عليه السلام] شريعة الفرات بصفين ومنعوهم الماء وهي الحادية والخمسون من المختار في باب الخطب، ورواها في البحار وفي شرح المعتزلي جميعا من كتاب صفّين لنصر بن مزاحم، فقال (عليه السلام): **أمّا بعد فإنّ القوم قد بدؤوكم بالظّلم، وفاتحوكم بالبغي ، واستقبلوكم بالعدوان. وقدِ اسْتَطْعَمُوكُمُ الْقِتَالَ، فَأَقِرُّوا عَلَى مَذَلَّة، وَتَأْخِيرِ مَحَلَّة، أَوْ رَوُّوا السُّيُوفَ مِنَ الدِّمَاءِ تَرْوَوْا مِنَ الْمَاءِ، فَالمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ، وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ. أَلاَ وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ قَادَ لُمَةً مِنَ الْغُوَاةِ وَعَمَّسَ عَلَيْهِمُ الْخَبَرَ، حَتَّى جَعَلُوا نُحُورَهُمْ أَغْرَاضَ الْمَنِيَّةِ.))**[١٢].

يبدو واضحا محورية البنية الصرفية في النص ومركزيَّتها في توجيه المعنى وضبط المتواليات اللفظية على منوالها، وهي تحمل قصد المتكلم، متلونة بين الصيغ الفعلية والاسمية وما انتابها من زوائد واشتقاقات.

رابعا- قراءة عامة في افتتاح الخطبة:

تميَّزت الخطبة بافتتاحيَّة صاخبة، خَلَتْ من المقدمات المعهودة في الخطب من تحميد وتمجيد، وباشرت غرضها مباشرة؛ ولعلَّ ذلك منوط بمجريات المقام التخاطبي وما حفَّه من أحداث تتطلب السرعة والفصل في اتخاذ القرار، فالجيش إزاء موقف حازم، بأن يتخذ الجِّدَ سبيلا لاعتزام القتال والدفاع عن الدين ومن أولياته استرجاع شريعة الماء وتحريرها من العدو، أو الرضوخ بخذلان والانسحاب من المعركة مهزومين مكسورين قبل وقوع الحرب، ولذا جاء الخطاب موجَّهًا يخلو من المقدمات، والمميز في الخطبة أنَّها تهدف إلى الحثِّ على القتال من دون التصريح فيه، وهذا النمط من الخطاب يتوسَّم عُرى التواصل بين أقطاب الحوار لبثِّ أغراضه، وكثير من الأحيان يكون التلميح أبلغ من التصريح، وقدِ اتَّكأ أسلوب الخطبة على بيان حقائق الأمور ونتائجها، مفرزة طريقينِ، طريق القبول بالذل والهوان، وطريق الانتفاض في وجه العدو وارجاع الحق لأهله، والعيش بكرامة، وما على المتلقي إلا أن يختار من هذين الطريقينِ، وإذا اتضح ذلك لزم أن نتابع دقة انتقاء البنى الصرفية التي نُسِجَت الخطبة على منوالها أولا، وما حملته من معانٍ دقيقة ثانيا.

المَطْلَبُ الثَّانِي- مِحْوَرِيَّةُ البُنْيَةِ الصَّرْفِيَّةِ فِي الْخُطْبَةِ:

يجتهد البحث في هذه المطلب بمراقبة محورية البنى الصرفية (فعلية/ أسمية) لنقف على أثرها في جلاء المعنى، ورصف المتواليات الملفوظية بحسب ما تستدعيه كلُّ صيغة من لفظ، وسبق أن أشَّرَ البحث شقَّي البنية الصرفية وتحليلها على مستوى بنية الصيغة وما تشتمله من معنى صرفي، وشقّ المعنى المعجمي الذي تكوِّنه حروفها، لذلك يتخذ البحث هنا إجراء تحليليا قائما على متابعة هذين الشقَّينِ ليقف على ما تحمله من معانٍ.

وقبل البدء بإجراءات التحليل يطيب للبحث أن يسجل ملمحا أسلوبيا تميزت به الخطبة وهو مجيئ جميع الأفعال الواردة فيها على بناء **(فُعَلَ)**، الذي يخرج لمعانٍ كثيرة ؛ ولكثرتها لم يُحصِها علماء الصرف كلّها[١٣]، ونودُّ أن نشير إلى طبيعة الإجراء التحليلي المتبع، حيث يكون قوامه بيان تفاعل الصيغ الفعلية والمصدرية الواردة في الخطبة معًا، لتنكشف دقة الاختيار، ومحورية البنية المنتقاة ، ولنا أن نذكر الأفعال التي وردت في الخطبة مع بيان أصلها الاشتقاقي:

١- فَعَلَ (بَدَأَ/ بدؤوكم):
٢- فَعَلَ (فَتَحَ/تحرَّك إلى بناء= فاعَل/فاتح، ثم استقر على = فاتحوكم):
٣- فَعَلَ (قَبَلَ/ استقبلوكم):
٤- فَعَلَ (طَعَمَ/ استطعموكم):
٥- فَعَلَ (قَرَرَ/ أقرُّوا):
٦- فَعَلَ (رَوَى/ روُّوا- تروووا):
٧- فَعَلَ (عَمَسَ/ عَمَّسَ):
٨- فَعَلَ (جَعَلَ/ جَعَلُوا):

ويمكن للبحث أن يقسِّم الأفعال الواردة في الخطبة على ثلاث مجموعات، بحسب الآتي:

المجموعة الأولى: (بدؤوكم، فاتحوكم، جعلوا):

شكَّل الفعلانِ (بدؤوكم، فاتحوكم) افتتاح الخطبة، واتصل بكلٍّ منهما لاحقة الجمع(ضمير= الواو) العائد إلى الجهة نفسها(القوم= معاوية وجيشه)، مما حدث تغيير في نمطهما التشكيلي جرَّاء تفاعل الضمير مع الصيغة (بَدَؤو/كم ، وفاتحو/كم) فتحول بناؤها من الفتح إلى الضم على وفق قانون التجانس الصوتي(١٤)، يعقبها لاحقة المفعولية (الكاف+ ميم الجماعة) العائدة إلى جيش الإمام (عليه السلام)، والمتأمل في طبيعة البنى الفعلية آنفة الذكر يجد كلَّ بنية منها قد رسمت أحداث الواقعة، فالفعل (بدؤوكم) أصله البنية الثلاثية (بَدَأَ)، وقد استُعمِل هنا من دون زيادة؛ ليكون انطلاقة حجاجية - نبيِّنُها لاحقا(١٥)- وقد جاء فاعلُه ضمير الجماعة(الواو) الذي يمثل إحالة إلى (القوم) الواردة في مفتتح الخطاب، وهي إحالة لا تسعف خالي الذهن من مقام الخطبة بمرجع واضح؛ لأن (الـ) في (القوم) عهدية تشير إلى مقام تداولي لا يمكن الوقوف على مرجعه إلَّا بعد الإحاطة بمقام الخطبة؛ إذ لا دليل يدل عليه بنيويا، وبتوضيح سياق الخطبة يتضح أنَّ عائديته مرتبطة بـ(القوم) وهؤلاء القوم هم معاوية وجيشه.

يعقبه الفعل(فاتحوكم) من (فَتَحَ) وقد تخلَّل البناء الأصلي زيادة في وسطه فأصبح(فاتَح) ولهذه الزيادة معنى صرفي يدلُّ على المشاركة والتجاذب بين طرفين(١٦)، وهو ما تحقق دلالته في سياق الخطبة ومجريات الحرب الدائرة بين جهتينِ.

وقد تميَّز السياق الملفوظي بالتدرج المتقن؛ إذ افتتحت الخطبة بفعل مجرد من الزيادة**(بَدَأ)**، ثم تلاه فعل اشتمل على زيادة حرف واحد فقط في(فاتَح) ليؤشر إلى تصاعد الأحداث ودقة التعبير عن مجرياتها أولا، وليواكب متعلق الفعل ثانيا؛ إذ تعلق بالفعل المجرد(بدأ) الجار والمجرور(بالظلم)، وتعلق بالفعل المزيد بحرف واحد(فاتح) الجار والمجرور(بالبغي)، والفرق بين الظلم والبغي هو أنَّ (الظلم): ((ضرر لا يستحق ولا يعقب عوضا سواء كان من سلطان أو حاكم أو غيرهما ألا ترى أن خيانة الدانق والدرهم تسمى ظلما... وأصل الظلم نقصان الحق... فقيل في نقيض الظلم الانصاف وهو إعطاء الحق على التمام))(١٧)و (البغي) هو : ((شدة الطلب لما ليس بحق بالتغليب وأصله في العربية شدة الطلب ومنه يقال دفعنا بغي السماء خلفنا أي شدة مطرها، وبغى الجرح يبغي إذا ترامى إلى فساد يرجع إلى ذلك وكذلك البغاء وهو الزنا وقيل في قوله تعالى " والاثم والبغي بغير الحق " أنه يريد الترأس على الناس بالغلبة والاستطالة))(١٨)، ولعل التجرد الذي جاء عليه الفعل الأول يواكب معنى الظلم، والزيادة التي اضطلع بها الفعل الثاني تساير معنى (البغي)، فيتفق سياق البنى الفعلية مع سياق البنى الاسمية بنية ودلالة وهذا غاية الدقة في النظم.

هذا بالنسبة إلى مرجعية الفاعل والتجرد والزيادة، أما لاحقة المفعولية المتمثل بالضمير(كم) مع (ميم الجماعة) فهو يستهدف المخاطَبين(جيش الإمام عليه السلام)، فظهر دقة الافتتاح من أول صيغة فعلية حددت أطراف الخطاب ومجريات المقام التخاطبي بدقة، ثم لا يخفى التقابلات الدلالية بين الضمائر التي جاءت متكافئة بالكم ومختلفة بالكيف-على ما سيأتي تفصيله- في نحو**(الفاعل/ واو الجماعة= العدو// المفعول به/ كاف الخطاب+ ميم الجماعة= جيش الإمام)** وهذه الثنائيات التقابلية تنطبق على الأفعال في المجموعة الثانية(**استقبلو/كم، استطعمو/كم**) مع زيادة في المعنى، أمَّا الفعل(جعلوا) الذي ورد في ختام الخطبة فقد آثر البحث وضعه في المجموعة الأولى؛ لأنَّه يشترك معها بخلوِّه من أحرف الزيادة، فهو من أصل**(فَعَلَ/ جَعَلَ)** وخِلوّه هذا يؤشر معنى خاص يستخلص من المقام مفاده بيان إصرار القوم/ الأعداء على القتال؛ إذ جعلوا رقابهم عرضة للمنية، وهذا أمر لا يحتاج لتضمين الفعل زيادة تؤكده أو تزيد من معناه، أضف إلى ذلك ما يدعمه معنى الفعل معجميا(١٩) من استلزام الجعل قصدية في وقوع مضمونه على ما يأتي بيانه في شقِّ مناقشة الصيغة معجميا.

المجموعة الثانية: (استقبلوكم، استطعموكم):

يعود كلٌّ من الفعلينِ إلى بنية الفعل الثلاثي(**فَعَلَ**) فأصل (استقبلوكم) من (قَبَلَ)، و(استطعموكم) من (طَعَمَ)، وجرى في استعمالهما مزيدينِ بزوائدَ تدلُّ على القصدية والاجتهاد في استدعاء وقوع الفعل من طريق أحرف الزيادة(ا، س، ت) في (استقبلوكم، استطعموكم)[٢٠] إذ شكلت متتالية الزيادة هذه نمطًا أسلوبيًا في الاستعمال العربي؛ فسيبويه يقول: ((ليس بعد الألف شيء من حروف الزيادة إلاَّ السين والتاء))[٢١].

المجموعة الثالثة: (أقرُّوا، روُّوا، عمَّس):

تعود بنية الأفعال إلى أصول ثلاثية (**قرَرَ، رَوَى، عَمَسَ**) ثم تهيَّأة الظروف الصوتية لتضعيف عين الفعل ولامه، وللتضعيف ملمح دلالي يدلُّ على قوة في الفعل، وقصدية في تحققه، ((فلمَّا كانت الأفعال دليلة المعاني كرروا أقواها وجعلوه دليلًا على قوة المعنى المحدث به، وهو تكرير الفعل، كما جعلوا تقطيعه في نحو: صرصر وحقحق، دليلًا على تقطيعه. ولم يكونوا ليضعفوا الفاء ولا اللام لكراهية التضعيف في أول الكلمة، والإشفاق على الحرف المضعَّف أن يجيء في آخرها وهو مكان الحذف وموضع الإعلال، وهم قد أرادوا تحصين الحرف الدال على قوة الفعل. فهذا أيضًا من مساوقة الصيغة للمعاني))[٢٢]

كان ذلك بلحاظ دقة انتقاء البنية الصرفية وما تحدثه من أثر في توجيه المعنى، ولنا أن نناقش شقَّ البنية الآخر وهو معناها المعجمي الذي كوَّنته اجتماع أصواتها الأصلية والزوائد، لتكتمل الصورة التي يقصدها المتكلم.

ثانيا- التفاعل الدلالي بين الصيغة والجذر المعجمي:

ناقشت الفقرة السابقة صيغ الأفعال ودلالاتها صرفيًّا بلحاظ الوعاء التي نُسِجَت الحروف على شكله، من دون مناقشة معناها المعجمي، ويرمي البحث في هذا المقام البحث في دلالة الصيغ بلحاظ معناها المعجمي؛ لنقف على المعنى الكلي المتحصل من دلالة الصيغة ومعناها المعجمي اللذين يسيران في تناسب طرديٍّ لتدعيم المعنى النهائي أو المعنى المقصود، ويكون ذلك بحسب الآتي:

أفعال المجموعة الأولى:

الفعل(بدؤوكم) من (بَدَأَ) وهو:((مِنِ افْتِتَاحِ الشَّيْءِ، يُقَالُ: بَدَأْتُ بِالْأَمْرِ وَابْتَدَأْتُ، مِنَ الِابْتِدَاءِ. وَاللَّهُ تَعَالَى الْمُبْدِئُ وَالْبَادِئُ))[٢٣]، وقد ورد في الخطبة مقيدًا بالظلم على نحو قول الإمام (عليه السلام): (**إنَّ القومَ بدؤوكم بالظلم**)، وعلى ذلك يكون العدو هو من بدأ بالظلم، وحق الظالم أن يقابل بظلمه وهذا منهج القرآن الكريم إذ قال: ((**الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**))[٢٤]، وقال:((**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**))[٢٥]، **وأكد القرآن الكريم على عدم بدء القوم بالقتال حتى يقاتلوهم الكفار:((وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ**))[٢٦]، ولا تخفى دلالة المصدر(الظلم) الذي يؤشر تلبُّس القوم بالظلم حتى تصبح صفة الظلم سجية ملاصقة لفعالهم[٢٧]، فبناء(بدأ) في خطبة الإمام (عليه السلام) له مرجعيات قرآنية، مضافة إلى دقة اختيار الصيغة وما لحقتها من لواحق، والمميز في الأمر أنها جاءت على حروفها الأصلية(الباء، والدال، والهمزة) من دون زيادة، ليأتي بعدها بناء فعلي آخر اشتمل على زيادة واحدة تدل على المشاركة والتفاعل في (فاتحوكم).

و(**فاتحوكم**) من (فَتَحَ) وهو:((أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الْإِغْلَاقِ. يُقَالُ: فَتَحْتُ الْبَابَ وَغَيْرَهُ فَتْحًا. ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَى هَذَا سَائِرُ مَا فِي هَذَا الْبِنَاءِ. فَالْفَتْحُ وَالْفَتَاحَةُ: الْحُكْمُ. وَاللَّهُ تَعَالَى الْفَاتِحُ، أَيِ الْحَاكِمُ. وَالْفَتْحُ: الْمَاءُ يَخْرُجُ مِنْ عَيْنٍ أَوْ غَيْرِهَا. وَالْفَتْحُ. النَّصْرُ وَالْإِظْفَارُ. وَاسْتَفْتَحْتُ: اسْتَنْصَرْتُ. وَفِي الْحَدِيثِ «أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يَسْتَفْتِحُ))[٢٨]، و((الفتح هو الفصل بين الشيئين))[٢٩].

إذ اشتمل الفعل على معان معجمية أربع هي:

١- **الفتح ضد الغلق.**
٢- **الماء الذي يخرج من عين.**
٣- **النصر والظفر.**
٤- **الفصل بين شيئين.**

وهي جميعها معانٍ محتملة في سياق الخطبة، مادام الأمر متعلق بأحداث الصراع على الماء، فيمكن أن يكون المعنى:

- **أنَّ القوم فتحوا عليكم البغي بمنعهم الماء عنكم.**
- **ويمكن أن يكون المعنى دافعوكم عن الماء بلحاظ صيغة الفعل(فاتَحَ) التي تدل على التفاعل والتجاذب بين الطرفين.**
- **ويمكن أن يكون المعنى (فاتحوكم) أي انتصروا عليكم بأخذهم شريعة الماء.**
- **ويمكن أن يكون المعنى -وهو أقوى الوجوه بحسب رؤية البحث- (فاتحوكم) فصلوا بينكم وبين شريعة الماء.**

فأيّ طرق المعنى المتوافرة في بنية الفعل(فتح) اخترت يجرِ مع المعنى العام، مع اعتبار زيادة (الف) المفاعلة في بنية الفعل(فَتَحَ/ فَاتَحَ)، ليمهد إلى بنية فعلية أوسع شكلا ومعنى، ممثلةً بـ(استقبلوكم، استطعموكم) في المجموعة الثانية، ((وهذا ضرب من تدريج اللغة عندهم، ألا ترى أنهم لما غيروا الصيغة والعدة واحدة في نحو: ضَرَب وضُرب و"شَتَم وشُتِم))[٣٠].

أفعال المجموعة الثانية:

ومنها الفعل:(قَبَلَ) وهو: ((أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ تَدُلُّ كَلِمُهُ كُلُّهَا عَلَى مُوَاجَهَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، وَيَتَفَرَّعُ بَعْدَ ذَلِكَ. فَالْقُبُلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: خِلَافُ دُبُرِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ مُقَدَّمَهُ يُقْبِلُ عَلَى الشَّيْءِ))[٣١].

ليشر إلى استقبال العدو للحرب وتطلعهم لها على نحو من المبالغة والتأكيد، يدل على ذلك صيغة (استفعل) التي من معانيها الطلب والتَّكلُّف[٣٢]، ومثلها بنية الفعل (استطعموكم) من(طعم) وهو: ((أَصْلٌ مُطَّرِدٌ مُنْقَاسٌ فِي تَذَوُّقِ الشَّيْءِ. يُقَالُ: طَعِمْتُ الشَّيْءَ طَعْمًا. وَالطَّعَامُ هُوَ الْمَأْكُولُ. وَكَانَ بَعْضُ أَهْلِ اللُّغَةِ يَقُولُ: الطَّعَامُ هُوَ الْبُرُّ خَاصَّةً... ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَى بَابِ الطَّعَامِ اسْتِعَارَةً مَا لَيْسَ مِنْ بَابِ التَّذَوُّقِ، فَيُقَالُ: اسْتَطْعَمَنِي فُلَانٌ الْحَدِيثَ، إِذَا أَرَادَكَ عَلَى أَنْ تُحَدِّثَهُ))[٣٣].

واضح مراعاة المعنى المعجمي لدلالة الصيغة(استفعل) التي تشير إلى طلب الطعام، أو مبادلة الحديث مجازا، وهكذا قرأ شرَّاح النهج دلالة الصيغتين(استقبلوكم، استطعموكم)، ومن ذلك قول ابن أبي الحديد: ((ستطعموكم القتال ، كلمة مجازية ، ومعناها : طلبوا القتال منكم ، كأنه جعل القتال شيئا يستطعم، أي يطلب أكله))[٣٤]، فقيَّدَ دلالةَ الصيغةِ بالطلب، ومثل هذا القول نجده عند حبيب الله الخوئي، فعنده (((استطعموكم القتال) أي طلبوه منكم، يقال فلان يستطعمني الحديث أي يستدعيه منّي ويطلبه))[٣٥]، ولعلهم – الشرَّاح- ألزموا دلالة(استفعل) على الطلب لما قرَّ في المفهوم اللغوي عند القدماء بوسم دلالتها على الطلب، ولكن هذه الدلالة لا تتماشى وبعض الاستعمالات اللغوية ومنها ما ورد في سياق الخطبة المباركة، إذ يرى البحث أنَّ تحديد دلالة(استفعل) على الطلب فيها نظر، ولو ذكر الشراح دلالة التكلُّف والاستدعاء في إتيان الفعل التي أشار إليها ابن فارس لكان أدق، حيث قال:((وأما اسْتفعلَ فيكون بمعنى التكلف، نحو "تعظَّمَ. واستعظم" و"تكبر. واستَكْبَر" ويكون استفعل بمعنى الاستدعاء))[٣٦]. ولعل توجيه معنى الصيغة في سياق الخطبة على (استدعوكم للقتال) أقرب للمعنى من الطلب.

فالاهتمام بصغية الكلمة يؤكد الأثر الذي يكون للمفردة في أداء المعنى فالصفات الصرفية - أبنية وصيغاً - تناط بها دلالات صرفية إلى جانب دلالاتها المعجمية التي تستمدها من أحرف الجذر فتتفاعل معها؛ إذ تدل صيغها على موصوف بمعنىً كالفاعلية ، نحو: ذاهب ، ساجد ، وقد تدل على المفعولية نحو: مفهوم، ومعلوم . وقد تدل على مفاضلة بين اثنين أحدهما زاد على الآخر، نحو: أكرم ، وأشرف ، وقد تدل على زمان الحدث أو

مكانه أو آلته نحو: موعد ، وملجأ ، ومفتاح ، ومبرد ، وتدل على التأكيد والاستدعاء لفعل شيء، أو المشاركة فيه[٣٧].

أفعال المجموعة الثالثة:

ومنها الفعل (أقرُّوا) من (قَرَرَ): ((الْقَافُ وَالرَّاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى بَرْدٍ، وَالْآخَرُ عَلَى تَمَكُّنٍ.))[٣٨]، و((القُرُّ: البَرْدُ عَامَّةً، بِالضَّمِّ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: القُرُّ فِي الشِّتَاءِ وَالْبَرْدُ فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، يُقَالُ: هَذَا يومٌ ذُو قُرٍّ أَي ذُو بَرْدٍ...وقَرَّ بِالْمَكَانِ يَقِرُّ ويَقَرُّ، والأُولى أَعلى؛ قَالَ ابْنُ سِيدَهْ: أَعني أَن فَعَلَ يَفْعِلُ هَاهُنَا أَكثر مِنْ فَعَلَ يَفْعَلُ))[٣٩]، ودلالته في الخطبة بمعنى ((من القرار وهو السّكون والثبات كالاستقرار ، أو من الاقرار والاعتراف والأول أظهر))[٤٠] ويذهب محمد جواد مغنية الى ترجيح الرأي الثاني مخالفا ما ذكره حبيب الله الخوئي وعنده المعنى ((إذا لم تجاهدوا بأرواحكم فقد تنازلتم عن كرامتكم واعترفتم بالذل على أنفسكم))[٤١]. واضح انتقال معنى الفعل من دلالته على (البرد) ثم استعمل للدلالة على المكث في المكان ، وجرى استعماله في الخطبة على الاعتراف والخنوع، أي (اعترفوا بالمذلة وتأخير محلَّة) وهذا معنى لم تؤشره المعجمات في متونها وهو قريب من روح النص ودلالته.

ومن الأفعال أيضا(روُّوا) من (روى) فـ((الرَّاءُ وَالْوَاوُ وَالْيَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِنْهُ. فَالْأَصْلُ مَا كَانَ خِلَافَ الْعَطَشِ، ثُمَّ يُصَرَّفُ فِي الْكَلَامِ لِحَامِلِ مَا يُرْوَى مِنْهُ. فَالْأَصْلُ رَوِيتُ مِنَ الْمَاءِ رِيًّا. وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: رَوَيْتُ عَلَى أَهْلِي أَرْوِي رَيًّا. وَهُوَ رَاوٍ مِنْ قَوْمٍ رُوَاةٍ، وَهُمُ الَّذِينَ يَأْتُونَهُمْ بِالْمَاءِ. فَالْأَصْلُ هَذَا، ثُمَّ شُبِّهَ بِهِ الَّذِي يَأْتِي الْقَوْمَ بِعِلْمٍ أَوْ خَبَرٍ فَيَرْوِيهِ، كَأَنَّهُ أَتَاهُمْ بِرِيِّهِمْ مِنْ ذَلِكَ))[٤٢]، والجميل في الأمر أنَّ الفعل استعمل في الخطبة مرتين:

الأولى- تخلله انزياح دلالي في معناه من ريِّ العطشان إلى ريِّ السيوف بالدماء، فاحدث تحرك في استعماله على مستوى الذات والمادة، إذ أصبح السيف هو العطشان بدل الإنسان، وأصبح الدم هو الذي يروي بدل الماء، على أنَّ هذا ليس دعوى لسفك الدماء ظلما وإنَّما جاءت لحفظ الإسلام والدفاع عن الشريعة المحمديَّة فهو قتال في سبيل الإسلام والجامع بين الاستعمالين الرواء المادي المتحقق إذا شرب العطشان الماء فبلغ مراده السوي في العيش، والمعنوي في الثاني الذي يحفظ هيبة الإسلام والمسلمين.

والثانية- في قوله (عليه السلام) : (تروووا من الماء) وهذا على استعماله حقيقة إلَّا أنَّه لا يخلو من معانٍ ضمنية مستلزمة، منها: ليس العبرة في الوصول إلى الماء والارتواء منه فحسب بقدر ما يكون دفاعا عن كرامة المسلمين وعدم الرضوخ للذلة والهوان المستلزمة تأخير مكانتهم وذهاب عزتهم.

ومن أفعال هذه المجموعة الفعل(عمَّس) المضعف من (((عَمَسَ) الْعَيْنُ وَالْمِيمُ وَالسِّينُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى شِدَّةٍ فِي اشْتِبَاهٍ وَالْتِوَاءٍ فِي الْأَمْرِ. قَالَ الْخَلِيلُ: الْعَمَاسُ: الْحَرْبُ الشَّدِيدَةُ. وَكُلُّ أَمْرٍ لَا يُقَامُ لَهُ وَلَا يُهْتَدَى لِوَجْهِهِ فَهُوَ عَمَاسٌ.))[٤٣]، لاشكَّ أنَّ للتضعيف الذي تخلَّل الفعل أثر في زيادة المعنى؛ فالزيادة في المبنى تؤدي إلى زيادة في المعنى[٤٤]، وإذا كانت دلالة (عَمَسَ) على الشدة في الاشتباه بلحاظ المعنى المعجمي، فأنَّ من شأن التضعيف أن يزيد في تضاعيف الشدة في الاشتباه والالتباس، وهذا يستلزم وهن القضية التي عُمِّسَ القوم عليها واشتُبِه عليهم حيثياتها، وما ورود الفعل (عمَّس) مضعفًا الا لبيان شدة ذلك الالتباس والاشتباه في زيف القضية التي نصبوا نحورهم دفاعًا عنها، وقد بيَّن الإمام (عليه السلام) اجتماع قوم معاوية على الباطل وتفرق قومه (عليه السلام) عن الحق في غير موضع في نهج البلاغة، منها ما ورد في قوله عليه السلام ((**أيُّها الْقَوْمُ الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ ـ الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ ـ الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ ـ الْمُبْتَلَى بِهِمْ أُمَرَاؤُهُمْ ـ صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ اللَّه وأَنْتُمْ تَعْصُونَه ـ وصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعْصِي اللَّه ـ وهُمْ يُطِيعُونَه ـ لَوَدِدْتُ واللَّه أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِي بِكُمْ ـ صَرْفَ الدِّينَارِ بِالدِّرْهَمِ ـ فَأَخَذَ مِنِّي عَشَرَةً مِنْكُمْ ـ وأَعْطَانِي رَجُلًا مِنْهُمْ**))[٤٥]، وغيرها كثير تكشف اجتماع اصحاب أهل الشام على الباطل، وتفرق أصحاب الإمام(عليه السلام) عن الحق، ولعل السبب يعود إلى سياسة كلٍّ من الفريقين، فمعاوية يسلك مع قومه طرائق قددا حتى ينصاعوا لطاعته منها الاغراء بالأموال، والتهديد بالقتل، وغيرها من أساليب الترهيب والترغيب لا يرغب في ما يفعل مخافة من الله فيصوِّر الباطل بصورة الحقِّ، ونجد على خلاف ذلك سياسة الإمام علي(عليه السلام) الذي يهدي إلى الحق ولا يتخذ غير طريقه طريقًا مستعينا بالحكمة والموعظة الحسنة[٤٦]، فكثر الجدال في صفوف جيشه ولم يرعَ أكثرهم حرمة المعصوم، يتفرقون وبعد وقوع المحذور الذي حذَّر منه الإمام(عليه السلام) يعودون عشاءً يبكون، وهكذا حتى ملؤوا قلبه- عليه السلام- قيحا.

فالاهتمام بصغية الكلمة يؤكد الأثر الذي يكون للمفردة في أداء المعنى فالصفات الصرفية - أبنية وصيغاً - تناط بها دلالات صرفية إلى جانب دلالاتها المعجمية التي تستمدها من أحرف الجذر، فتزيد من معناه[٤٧].

ثالثا- حجاجية البنى الصرفية في الخطبة:

شكَّل توالي البنى الصرفية(الفعلية والاسمية) الواردة في الخطبة وازعًا حجاجيا منتظمًا يسير على خطى لفظية وئيدة تواكب تفاقم الأحداث لتصل إلى نتيجة معينة، وجاءت تحوي في طياتها فراغات سردية تحمَّل المقامُ التخاطبيُّ سدَّها، وهذا مبني على عرى التواصل الوثيق بين منتج الخطاب ومتلقيه، و((الحِجَاج في أعم تعريفاته العملية التي من طريق ها يسعى المتكلم إلى تغيير نظام المعتقدات والتصورات لدى مخاطبه بواسطة الوسائل اللغوية)) [٤٨] ، وقِيل فيه: ((هو أن يقدم المتكلم قولاً (ق١) (أومجموعة أقوال) موجهة إلى جعل المخاطب يقبل قولاً آخر (ق٢) (أومجموعة أقوال أخرى) سواء أكان (ق٢) صريحاً أم ضمنياً))[٤٩] ، و((هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل في إنجاز متواليات من الأقوال بعضها بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تُستنتج منها))[٥٠].

لو تأملنا المجموعات الفعلية بمتعلقاتها المذكورة سابقا لوجدنا كلَّ مجموعة تشكل سلَّمًا حجاجيا يتغيَّا نتيجة واحدة، وللبحث أن يتأملها بعد بيان مفهوم السلَّم الحجاجي بشيء يسير.

السلم الحِجَاجي هو علاقة تراتبية للحجج يمكن أن نرمز لها:

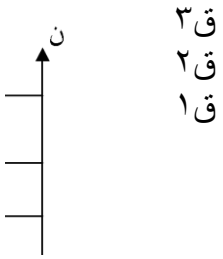

فعندما تكون بين الحجج المنتمية إلى فئة حجاجية معينة علاقة تراتبية؛ فإنَّ هذه الحجج تنتمي إلى سلَّم حجاجي واحد. ويتسم السلم الحِجَاجي بسمتين:

– كل قول يرد في درجة ما من السلم يكون القول الذي يعلوه أقوى منه.

– إذا كان القول (ب) يؤدي إلى النتيجة (ن)، فهذا يقتضي أن القول (ج) والقول(د) اللذين يعلوانه درجة يؤديان إليها أيضاً. فإذا أخذنا المثال الآتي: (حصل زيد على شهادة البكالوريوس والماجستير بل على الدكتوراه أيضاً)[٥١].

وقد مثلت أفعال الافتتاح في الخطبة سلَّمًا حجاجيا ممهدا لسلالم ومقابلات دلالية لاحقة أقوى منه مبنى ومعنى، نتمثَّله بحسب الآتي:

– **ن** - أو رووا السيوف من الدماء تروووا من الماء.
- فأقروا على مذلة، وتأخير محلة.

– ح٤: واستطعموكم.... القتل. .

– ح٣: واستقبلوكم .....بالعدوان..

– ح٢: وفاتحوكم.....بالبغي..

– **إنَّ القوم قد**:ح١: بدؤوكم.....بالظلم..

مناقشة السلم الحجاجي:

يقوم السلم الحجاجي السابق على تكافؤ تامٍّ بين الصيغة الفعلية والاسمية على المستوى الأفقي في كلِّ حجة، ويقدِّم منحًى تصاعديًّا في (الدلالة/ الأحداث) من حجة إلى أخرى ليقدم نتيجةً مركَّبةً من طريق الرابط الحجاجي(أو) الذي يضع القوم أمام خيارينِ لا ثالث لهما، ولنا أن نناقش الحجج بحسب الآتي:

- **ح١**: تضمنت الانطلاقة الأولى للخطاب، فجاءت على بناء: (بدؤوكم بالظلم)، لتمثل أول مناوشات الأعداء لأصحاب الإمام، وقد أورد الفعل(بدأ) مجردا من الزيادة ليكون انطلاقة تأسيسية لمتواليات حجاجية أقوى منه، وليواكب بنية المصدر(الظلم) الذي يُعدُّ أقل وقعًا من (البغي) الوارد في الحجة الثانية.
- ح٢: جاءت بكفاءة أقوى من سابقتها لذلك فهي تشتمل على (ح١) مع زيادة، ومردُّ ذلك لما تخلَّل البنية من زيادة في صيغة الفعل(فاتح) ليواكب صيغة المصدر(البغي) الذي يستوعب الظلم مع شدَّة فيه[٥٢].
- ح٣: مثلت هذه الحجة اشتغالا أوسع من الحجَّتين السابقتين من طريق الزيادة التي اشتملت عليها بنية الفعل(استقبل) التي تدلُّ على الاستدعاء والمبالغة في الطلب، لتواكب البنية المصدرية (العدوان) لما في بناء (فعلان) من هيجان وحركة[٥٣].
- ح٤: ثم تختتم الحجج بحجة أقوى من سابقاتها مبنى ومعنى في(استطعموكم القتل).

النتيجة: ويُرمز لها(**ن**): المتمثلة بـالتخيير بين الاقرار بالمذلة، وتأخير المنزلة، أو الجهاد وسفك الدماء بغية العيش بكرامة ورفيع منزلة، وصيانة الدين من الزيغ والانحراف، وفي ذلك ((بيان ما يتضمنه القول من قوة حجاجية تمثل مكوناً أساسياً لا ينفصل عن معناه بجعل المتكلم في اللحظة التي يتكلم فيها يوجّه قوله وجهة حجاجية ما)) [٥٤].

ولا يخفى على القارئ الكريم الغرض الأساس الذي سيقت من أجله الخطبة وهو الحث على القتال؛ ولكن من الملفت جدًّا أنَّ المدقق في سطورها لا يجد تلك الدعوى الصريحة له، وإنَّما قامت الخطبة على بيان اعتداء القوم ومبادرتهم للقتال، على وفق سلَّمية حجاجية تصاعدية تنتهي بخيار يُتاح أمام القوم مردَّه إلى ثنائية تخييرية على وفق(أمَّا/ أو) ليترك للمتلقي المشارك(جيش الإمام عليه السلام) تحديد مصيره من طريق اختيار أحد البديلين، على وفق قوله عليه السلام: (**فأقرّوا على مذلَّة ، وتأخير محلَّة . إلى قوله : الماء**)، إذ ((أمر لهم بأحد لازمين عن منعهم الماء واستطعامهم القتال : إمّا ترك القتال ، أو إيقاعه . وإنّما أورد الكلام بصورة التخيير بين هذين اللازمين وإن لم يكن مراده إلَّا القتال لعلمه بأنّهم لا يختارون ترك القتال مع ما يلزم من الإقرار بالعجز والمذلَّة والاستسلام للعدوّ وتأخير المنزلة عن رتبة أهل الشرف والشجاعة ، وإنّما أورد الوصفين اللازمين لترك القتال . وهما الإقرار على المذلَّة وعلى تأخير المحلَّة لينفّر بهما عنه ويظهره لهم في صورة كريهة ، وإنّما جعل الريّ من الماء الَّذي هو مشتهى أصحابه في ذلك الوقت لازما لترويتهم السيوف من الدماء الَّتي يلزمها القتال ليريهم القتال في صورة محبوبة تميل طباعهم إليها))[٥٥]. وكلُّ ذلك جاء على وفق هندسة حجاجية هدفها((درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التّسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم))[٥٦]. ويهدف إلى التأثير العملي المتمخض عن التصورات العقلية المقدمة من المحاجج إلى المتلقي، ويكون أكثر فعالية كلّما وفّق المحاجج في جعل حّدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكلٍ يدفعهم إلى عمل شيءٍ ما أو الإمساك عنه، فالغاية التي يتأسس عليها هي مجابهة العقول وإقناعها؛ ((فليس الحِجَاج في النهاية سوى دراسة لطبيعة العقول، ثم اختيار أحسن السُبل لمحاورتها، والإصغاء إليها ثم محاولة حيازة انسجامها الإيجابي والتحامها مع الطرح المقدّم))[٥٧].

مما تقدم تبيَّن أثر الصيغة في توجيه المعنى، إذ تشتمل على المعنى المعجمي وتوظفه بحسب بنيتها فتزيد من زخمه الدلالي، ثم يأتي مائز توجيهي آخر وهو المقام التخاطبي الذي يعتمده منتج الخطاب في طيِّ كثير من الملفوظات اعتمادا على عرى التواصل مما يجعل المتلقي مشاركا في انتاج الخطاب، ومساهما في تفسيره.

الخاتمة:

بعد هذه السياحة العلمية في رياض البلاغة، يطيب للبحث أن يسجِّل ما عنَّ له من قطوف، نجملها بالآتي:

١- شكَّل بناء(فَعَلَ) ملمحا أسلوبيا في عموم الخطبة؛ إذ جاءت أفعال الخطبة جميعها على هذا البناء.

٢- سلك أسلوب الخطاب منهجا تصاعديا في بناء متوالياته الملفوظية، من التجرد في الفعل إلى الزيادة وعلى نحو رتيب.

٣- جاءت البنى الاسمية مواكبة لبناء الأفعال الواردة معها معنى، فكل ما اشتمل الاسم على معنى فيه قوة وشدَّة جاء الفعل معه مشتملا على زيادة تواكب ذلك المعنى.

٤- ورد في الخطبة استعمال أفعال في معنى غير المعنى الذي عُرِفت به معجميا، على ما رأينا في انتقال معنى الفعل(قرر) من دلالته على (البرد) ثم استعمل للدلالة على المكث في المكان ، وجرى استعماله في الخطبة على الاعتراف والخنوع، أي (اعترفوا بالمذلة وتأخير محلَّة) وهذا معنى لم تؤشره المعجمات في متونها وهو قريب من روح النص ودلالته.

٥- من أهم الميزات الأسلوبية في الخطبة أنَّها لم تصرح بغرض منتجها صراحة ولكنها مثَّلته بدقة متناهية، قادت متلقيها إلى الاذعان له والتوجه بحسب مبتنياتها.

٦- كان لمجريات المقام التخاطبي أثر بارز في بناء الخطبة، ومنها: خلوها من الافتتاح، وطيّ كثير من المعلومات التي بُنِي عليها الخطاب لتعامل معاملة المسكوت عنه اعتمادا على المتلقي ليفك شفرتها.

٧- قدمت الخطبة مجموعة من الحجج المتسلسلة تنتهي إلى نتيجة ذات بدائل تمثل الغرض من الخطبة عامة، مع بيان ما يترتب على اختيار أيٍّ من البدائل، حتى يكون المتلقي على بينة من أمره.

٨- اشتملت الخطبة على مرجعيات قرآنية، واجتماعية، مثلت ملمحا حجاجيا لتوجيه المتلقين.

المصادر **والمراجع:**

- القرآن الكريم.
- ارتشاف الضَرَب من لسان العرب ، أبو حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ) ، تح : رجب عثمان محمد ، ومراجعة : رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي – القاهرة ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .
- الاعجاز الصرفي في القرآن الكريم: الدكتور عبد الكريم احمد يوسف هنداوي، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة، فاضل الساقي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٧م.
- التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة " دراسة في الدلالة الصوتية ، والصرفية ، والنحوية ، والمعجمية " ، الدكتور محمود عكاشة ، دار النشر للجامعات ، مصر ، ط١، ٢٠٠٥ .
- جدل اللفظ والمعنى، مهدي أسعد صالح عرار، دار وائل للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٢م.
- الحِجَاج عند أرسطو، هشام الريفي، بحث ضمن كتاب(أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم)، فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب منوبة، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس (١٩٩٨م).
- الحِجَاج في اللغة، الدكتور أبو بكر العزاوي، بحث ضمن كتاب(الحجاج مفهومه ومجالاته)، فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب منوبة، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس (١٩٩٨م).
- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤.
- دلالة الألفاظ، للدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الإنجلو المصرية، ط٣، ١٩٧٢م.
- سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ)، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

- شرح شافية ابن الحاجب ، الشيخ رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي ، تحقيق محمد نور الحسن ، ومحمد الزفزاف ، ومحمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، ١٩٧٥م .
- شرح شافية ابن الحاجب ، رضي الدين الإستراباذي (ت٦٨٦هـ) ، تح : محمد نور الحسن ، ومحمد محيي الدين عبد الحميد ، ومحمد الزفزاق ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد(ت: ٦٥٦هـ)، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، الناشر محمد علي بيضون، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
- الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.
- في ظلال نهج البلاغة، لمحمد جواد مغنية، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٢م.
- الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى: ١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- الكليات، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، دار صادر – بيروت، ط٣، ١٤١٤ هـ.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ)، تحقيق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله، دار الفكر – دمشق،ط٦، ١٩٨٥.
- مفهوم الحِجَاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، محمد سالم محمد الأمين الطلبة، بحث ضمن كتاب (الحِجَاج مفهومه ومجالاته).
- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، حبيب الله الهاشمي الخوئي(ت: ١٣٢٤هـ)، حقيق : سيد إبراهيم الميانجي، مطبعة الاسلامية بطهران، ط٤.
- موسوعة النحو والصرف، الدكتور اميل بديع يعقوب، مطبعة عترت، ٢٠٠٥م.
- نظرية الحِجَاج في اللغة، الدكتور شكري المبخوت، بحث ضمن كتاب(أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم).
- نهج البلاغة، ضبط وابتكر فهارسهُ العلمية الدكتور صبحي الصالح، ط١، بيروت، ١٩٦٧م.

الهوامش

(١) جدل اللفظ والمعنى، مهدي أسعد صالح : ٢٦ .

(٢) الخصائص، ابن جني : ٢/ ٣٢٨ .

(٣) دلالة الألفاظ، ابراهيم أنيس : ٤٧ .

(٤) موسوعة النحو والصرف والإعراب، أميل بديع يعقوب : ٣٦٩ .

(٥) أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة، فاضل الساقي : ٢٠٣ .

(٦) لسان العرب، ابن منظور:٨/٤٤٣.

(٧) لسان العرب: ٨/ ٤٤٢.

(٨) ينظر: شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي: ١/ ٢.

(٩) الكليات، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي (المتوفى: ١٠٩٤هـ): ٥٦٠.

(١٠) الاعجاز الصرفي في القرآن الكريم، عبد الحميد هنداوي: ٩.

(١١) ينظر: الاعجاز الصرفي في القرآن الكريم: ٢٢.

(١٢) خطب نهج البلاغة، تحقيق: د. صبحي الصالح: ٨٨.

(١٣) ينظر : شرح الشافية، رضي الدين الاستربادي : ٧٠/١ ، وارتشاف الضرب، أبو حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ) : ١٦٧/١ .

(١٤) ينظر: الكتاب، سيبويه: ٤/ ١٥٥ ومابعدها، و سر صناعة الاعراب، ابن جني: ٢/ ٢٧٢ وما بعدها.

(١٥) ينظر: صحيفة (٢٠) وما بعدها .

(١٦) ينظر: شرح شافية ابن الحاجب: ١/ ١٠٠.

(١٧) الفروق اللغوية، ابو هلال العسكري: ١/ ١٧٢.

(١٨) الفروق اللغوية: ١/ ٣٤١-٣٤٢.

(١٩) ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس: ١/ ٤٦٠.

(٢٠) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس: ١٧٠.

(٢١) الكتاب، سيبويه: ٤٣١/٣.

(٢٢) الخصائص: ٢/ ١٧٥.

(٢٣) معجم مقاييس اللغة: ١/ ٢١٢.

(٢٤) سورة البقرة: ١٩٤.

(٢٥) سورة الحج: ٢٥.

(٢٦) سورة البقرة: ١٩١.

(٢٧) ينظر: الصاحبي: ١٨٠.

(٢٨) معجم مقاييس اللغة: ٤/ ٤٦٩.

(٢٩) معجم الفروق اللغوية،: ٣٩٦.

(٣٠) الخصائص: ٢٢٠/٢.

(٣١) مقاييس اللغة: ٥/ ٥١.

(٣٢) ينظر: الصاحبي: ١٧٠.

(٣٣) مقاييس اللغة: ٣/ ٤١٠- ٤١١.

(٣٤) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد(ت: : ٦٥٦هـ): ٣/ ٢٤٤.

(٣٥) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، حبيب الله الهاشمي الخوئي(ت: ١٣٢٤هـ: ٤/ ٣٠٢.

(٣٦) الصاحبي: ١٧٠.

٣٧ - ينظر : التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة ، الدكتور محمود عكاشة: ٩ .

(٣٨) مقاييس اللغة: ٥/ ٧.

(٣٩) لسان العرب: ٥/ ٨٢- ٨٤.

(٤٠) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، حبيب الله الهاشمي الخوئي: ٤/ ٣٠٢.

(٤١) في ظلال نهج البلاغة، محمد جواد مغنية: ١/ ٢٨٧.

(٤٢) مقاييس اللغة: ٢/ ٤٥٣.

(٤٣) مقاييس اللغة: ٤/ ١٤٢.

(٤٤) ينظر: مغني اللبيب، ابن هشام: ١/ ١٨٥.

(٤٥) نهج البلاغة، تحقيق: الدكتور صبحي الصالح: ١٤٢.

(٤٦) للإمام عليه السلام خطب يبين فيها الفرق بين سياسته القائمة على مبادئ الدين وأسس القرآن الكريم، وسياسة معاوية القائمة على المكر والغدر والتضليل، ومنها قوله عليه السلام: ((**واللَّه مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنِّي ولكِنَّه يَغْدِرُ ويَفْجُرُ - ولَوْ لَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ - ولَكِنْ كُلُّ غَدْرَةٍ فُجَرَةٌ وكُلُّ فُجَرَةٍ كُفْرَةٌ - ولِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِه يَوْمَ الْقِيَامَةِ - واللَّه مَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ ولَا أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ**)). نهج البلاغة: ٣١٨.

(٤٧) ينظر : المغني الجديد في علم الصرف : ٢٤٥ ، و التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة : ٩ .

(٤٨) الحِجَاج عند أرسطو، هشام الريفي:٣٥٠.

(٤٩) نظرية الحِجَاج في اللغة، الدكتور شكري المبخوت: ٣٦٠.

(٥٠) الحِجَاج في اللغة، الدكتور أبو بكر العزاوي:٥٧/١.

(٥١) الحِجَاجيات اللسانية عند انسكومبر وديكرو: ٢٢٧.

(٥٢) ينظر: الفروق اللغوية:٣٤١/١.

(٥٣) ينظر: الكتاب: ٤/ ٢٢.

(٥٤) نظرية الحِجَاج في اللغة:٣٥١-٣٥٢.

(٥٥) شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ٢/ ١٣٥.

(٥٦) الحِجَاج في القرآن:٢٧.

(٥٧) مفهوم الحِجَاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، محمد سالم محمد الأمين: ١٨٩/٢.